African Journal of Advanced Studies in Humanities and Social Sciences (AJASHSS)
المجلة الإفريقية للدراسات المتقدمة في العلوم الإنسانية والاجتماعية
Online-ISSN: 2957-5907
Volume 3, Issue 3, July - September 2024, Page No: 313-323
Website: https://aaasjournals.com/index.php/ajashss/index

Arab Impact factor 2023: 1.25 SJIFactor 2023: 5.58 ISI 2022-2023: 0.510

أنوار أم احتقار؟ أو في الوجه الآخر لذكوريّة الأنوار

د. مفتاح حلاب *
قسم الفلسفة، المعهد العالي للعلوم الإنسانية بجندوبة، جندوبة، تونس

Enlightenment or Contempt? Or, On the Other Face of the Enlightenment's Masculinity

Dr. Meftah Halleb *
Department of Philosophy, Higher Institute of Humanities in Jendouba, Jendouba, Tunisia

*Corresponding author meftahhalleb@gmail.com *المؤلف المراسل
تاريخ النشر: 2024-09-16 **تاريخ القبول:** 2024-09-13 **تاريخ الاستلام:** 2024-07-30

الملخص
تستخدم هذه الدراسة، المعنونة "أنوار أم احتقار؟ أو في الوجه الآخر لذكوريّة الأنوار"، منهجية تفكيكية واستقرائية لفحص نصوص التنوير الأساسية في قراءة نقدية تأويلية. بدافع من أحداث معاصرة، مثل مقتل الصحفية الفلسطينية شيرين أبو عاقلة، يسعى البحث إلى الكشف عن الثغرات الإيديولوجية والبنى التمييزية الخفية داخل العقل الغربي الذي يُعد سليل الأنوار. تجادل الورقة بأن مشروع التنوير قد سقط أخلاقياً، وتحولت مفاهيمه الكونية إلى أدوات للاستعمار وهيمنة "الرجل الأبيض". وتكشف الدراسة تحديداً عن الذكورية المتأصلة (الانحياز الجندري) في التنوير من خلال تحليل كتابات رموزه الكبار، إيمانويل كانط وجان جاك روسو. يُنتقد كانط لـ "جندريته الخجولة" التي تستبعد المرأة من دائرة المواطنة الفاعلة والعقلانية العميقة، وتصنفها كـ "الجنس الضعيف". وبالمثل، يُدان روسو لموقفه البطريركي، معتبراً المرأة مخلوقة فقط لإشباع غرائز الرجل ومساهماً فعّالاً في استعبادها، رغم دفاعه عن الحرية والمساواة. تختتم الورقة باقتراح تجديد لقيم التنوير الحقيقية عبر الاستلهام من فلسفة ابن رشد. يُقدم فكر ابن رشد، الذي سبق التنوير الغربي، كنموذج للعقلانية السليمة وغير المشوهة التي تناصر المساواة المطلقة بين الجنسين في جميع الوظائف الإنسانية والمجتمعية، مقدماً طريقاً بديلاً للخلاص الروحي والفكري من أزمة العقلانية المعاصرة.

الكلمات المفتاحية: التنوير، الذكورية، الاحتقار، ابن رشد، كانط، روسو، المساواة.

Abstract
The present study, titled "Enlightenment or Contempt? Or, On the Other Face of the Enlightenment's Masculinity" , uses a deconstructive and inductive methodology to examine the canonical texts of the Enlightenment in a critical, interpretive reading. Prompted by contemporary events, such as the killing of the Palestinian journalist Shireen Abu Akleh , the research seeks to expose the ideological flaws and hidden discriminatory structures within Western rational thought, which is often considered the heir to the Enlightenment. The paper argues that the Enlightenment project has failed morally, transforming its universal concepts into tools for colonialism and the dominance of the "white man". The study specifically

uncovers the deeply ingrained masculinity (gender bias) of the Enlightenment by analyzing the writings of its major figures, Immanuel Kant and Jean-Jacques Rousseau. Kant is criticized for his "shy genderism" that excludes women from the sphere of active citizenship and deep rationality, classifying them as the "weak sex". Rousseau is likewise condemned for his patriarchal stance, viewing women as created only to satisfy men's instincts and actively contributing to their subservience, despite his advocacy for liberty and equality. The paper concludes by proposing a renewal of authentic Enlightenment values by drawing inspiration from the philosophy of Ibn Rushd (Averroes). Ibn Rushd's thought, which predated the Western Enlightenment, is presented as a model for true, uncorrupted rationalism that champions absolute equality between men and women in all human and societal functions, offering an alternative path to spiritual and intellectual redemption from the crisis of contemporary rationalism.

Keywords: Enlightenment, Masculinity, Contempt, Ibn Rushd, Kant, Rousseau, Equality.

فاتحة:

"رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَلَيْسَ الذَكَرُ كَالأُنْثَى" (قرآن كريم)

"يتكلّم الرجال عمّا يعلمون وتتكلّم النساء عمّا يجلب لهنّ السرور" (جان جاك روسو)

أولاً: السياق العام وباعث الدراسة

تعود فكرة هذا المقال إلى وقوع تلك الحادثة الشنيعة المتمثلة في مقتل الصحفية الفلسطينية شرين أبو عاقلة .تلك الصحفية قُتلت بطريقة وحشية وباردة، أمام أنظار العالم وغياب ردود فعل قوية من الحقوقيين والتنويريين في الغرب والشرق .لقد تركت هذه الحادثة حزناً عميقاً في الوجدان، ولكنها في الوقت ذاته أثارت وابلاً من الأسئلة الحارقة .كيف تُقتل امرأة بتلك الطريقة البشعة؟ .ولماذا كانت الردود حول هذه الحادثة مخيبة للآمال؟ .أين أصوات المدافعين عن حقوق الإنسان؟

يبرز التساؤل الأشد إلحاحاً حول صوت العقل الغربي الذي اعتاد أن يحتجّ ويصخب عند أدنى مضايقات للنساء خارج أوروبا وأمريكا وإسرائيل، ويهدّد بتسليط أشدّ العقوبات .هل هذا العقل الغربي، الذي يتشدّق به القاصي والداني، والذي هو سليل الأنوار والحداثة، غير قادر على قول كلمة الحق في هذه الواقعة؟ . هل أصبح هذا العقل مناقضاً لذاته، أم أن برنامج التنوير الذي يتغنى به بات حكراً على "الرجل الأبيض"؟.

تتأكد هذه الفرضية بالنظر إلى التاريخ؛ ففي سنة (1899) كتب الشاعر الإنجليزي روديار كبلينغ (Rudyard Kipling)قصيدته "عبء الرجل الأبيض ("The white man’s burden") "، التي أنشد فيها تفوّق الجنس الأبيض .لقد مثّلت هذه القصيدة الأساس الأدبي للاستعمار الأوروبي للعالم ، وهي التي صاغت مستقبل العلاقات بين الدول وقسّمت البشر إلى أجناس غير متساوية ، حتى أن مجلة *Foreign Policy*نشرت تقريراً بعنوان "العرق مهم في العلاقات الدولية."

ثانياً: الإشكالية والأطروحة المركزية

هذه الأسئلة وغيرها تدفعنا - عن كثب - إلى العودة إلى نصوص التنوير من أجل إقامة حفريات أركيولوجية تهدف إلى تفكيك بنية العقل الغربي في مرحلة أولى .وفي المرحلة الموالية، تهدف الدراسة إلى مراجعة ما تخلّد في محصّلة الذاكرة من نصوص - حسبناها متينة - ولكنّها اليوم انكشفت عوراتها الإيديولوجية وظهر وجهها العابس القائم على الحيف والعنصرية والتفرقة.

لذلك، نسعى من خلال هذه الورقة العلمية للإجابة عن هذه الأسئلة التي لا تتحمل التأجيل ، عبر الكشف عن حقيقة الذكورية المتجذرة في قلب مشروع الأنوار التي لم توصِ بالنساء خيراً .بل كان خطاب التنوير ذكورياً في الظاهر والباطن ، فظاهره يسعى للقطع مع الجهل والظلمات، لكن باطنه يتورّط في جهل وظلمات جديدة عندما يواصل استعباد النساء والتشنيع بهنّ وكأنّهن لا تشملهّن صفة الإنسان .هذا التناقض يمكن نعته بـ" صدام الأضداد (Choc des contraires) "على حد تعبير الفيلسوف آلان.(Alain)

السؤال الجامع للدراسة هو :هل غابت المرأة أم **غُيّبت** عن تاريخ الأنوار؟ .هذا السؤال ليس من جنس الأسئلة التي تحتمل إجابة واحدة ، وعليه، حقيق بنا أن نفلي نصوص الأنوار ونكشف عن وجهها الآخر عملاً بالمثل القائل: "ما خُفيّ كان أعظم."

ثالثاً: المنهجية والأهداف

المنهجية:

لتحقيق الأهداف المذكورة، سنعتمد في هذا البحث المنهج التفكيكي والمنهج الاستقرائي لمعالجة نصوص التنوير "الملغّمة."

1. المنهج التفكيكي :يهدف إلى وضع التنوير بين قوسين وتنزيله ضمن مساءلة فلسفية هادئة وغير متشنّجة ، وذلك بفتح مغالق نصوصه وقراءتها قراءة تفكيكية تأويلية نقديّة .هدفنا ليس شطب عصر الأنوار بجرّة قلم أو إجراء عملية تجميلية لأجزائه الفاسدة ، بل الكشف عن الثغور التنويرية وفحص "البثور" التي شوّهت الوجه المشرق للتنوير ، والعمل على وضع حدٍّ للتآكل الروحي للتنوير وإنقاذ ما تبقى منه من قطع إنسانية.
2. المنهج الاستقرائي :يتجلى في تتبع المواقف الجندرية الصريحة والمستترة لدى أبرز فلاسفة التنوير مثل كانط وروسو، والانتقال من الجزئي (المواقف الفردية) إلى الكلي (الأطروحة العامة حول ذكورية التنوير).

الأهداف:

تهدف هذه الدراسة إلى:

1. تحرير قيم التنوير الكونية من "العالميّة" التي قيّدت العقل الإنساني وجعلته عقلاً" كُلّيانياً " متصلبًا، وتم استغلاله باسم شعارات التنوير.
2. تقييم منجزات التنوير قبل تقويمه، والإمساك بـ" عصا التنوير من الوسط."
3. تثمين إيجابيات الأنوار وتجاوز سلبياته وقطع دابرها، ليتبيّن الخيط الأبيض من الخيط الأسود في علاقة التنوير بالإنسان.
4. الرهان على الأصالة الرشدية (نسبة لابن رشد) ضمن تنويرنا الأصيل، ليكون الأمل الجديد لإحياء التنوير الغربي المهترئ.

رابعاً: هيكلية البحث

لقد ارتأينا تقسيم هذه الدراسة إلى ثلاثة فصول تسبقهم مقدمة وتليهم خاتمة عامة.

1. **الفصل الأول :**في الكشف عن الوجه الآخر للأنوار (الوجه العابس).
2. **الفصل الثاني :**كانط والجندريّة الخجولة ونهاية أسطورة "العنقاء الجميلة."
3. **الفصل الثالث :**روسو وموءودة الأنوار أو أهازيج الحرية والمساواة الفارغة.
4. **خاتمة :**ابن رشد وتهافت الأنوار الغربية.

الفصل الأول: في الكشف عن الوجه الآخر للأنوار (الوجه العابس)

إذا تأملنا في عالمنا الراهن، نستطيع القول بأن نبوءة كارل ماركس (Marx) قد تحققت، وأن التاريخ يعيد نفسه في المرة الأولى كمأساة، وفي المرة الثانية كمهزلة، وهي قاعدة أثبتت قابليتها للتحقق والتحقق.

ربما لن يصدق الكثير من أهل التنوير أن مسألة نهاية الأنوار أصبحت حتمية، وأن المسألة مجرد وقت. كثيرون لم يتحملوا وطأة السقوط الأخلاقي المدوي للأنوار، والأدهى من ذلك أن الكثيرين من أبناء جلدتنا ما زالوا مستميتين في الدفاع عن نظرية التنوير وكأنه حصن الإنسانية الدائم، على الرغم من تراجع درس الأنوار في مدنه الأصلية (ألمانيا، فرنسا، إنجلترا). إلا أن هذا الدرس ظل بنفس الحماس في جامعاتنا، خاصة في أقسام الفلسفة، وكأن شيئاً لم يقع.

مع نهاية القرن الماضي، افتضح أمر نصوص التنوير وثبت تورطها في ألاعيب" الرجل الأبيض " ونواياه الكُلّانية (Totalitarisme) (André, 1996) السيئة والمُبيّتة، فتحولت نصوص الأنوار إلى نصوص هندسية للاستعمار (منشورات الجامعة الإيطالية، 2000). لقد انكشفت حقيقة خطابات الحداثة وشعاراتها اللامعة التي انتهت إلى ممارسات أكثر فظاعة من ممارسات العصر السابق للأنوار. ويبدو أن السنوات القريبة تكشف دون عناء عن حجم الرداءة التي انتهى إليها مشروع التنوير والحداثة والتقدم.

هذا الأمر لم يعد اليوم في حاجة للبحث عن أدلة، لأنه يبرهن عن حقيقته بنفسه. فالقتل وروائح البارود في كل مكان، وأصبحت النقاشات حول الدرس التنويري حامية الوطيس، وصار العالم على صفيح ساخن، وكأننا نعيش" حرب الكل ضد الكل "وفق تعبير هوبز(Hobbes) ، وهذا ما جنته الحداثة والأنوار على الإنسان بالأمس واليوم وربما غداً.

منذ أسابيع، طمس التنوير عينه بإصبعه، فقد كان هابرماس (Habermas) و إدغار موران – (Morin) أحفاد التنويريين – آخر الموقّعين على شهادة وفاة التنوير ونهاية أسطورة الحداثة. لقد كانت نصوص التنوير الوقود الذي يؤجج نيران الحرب والعنصرية في كل مكان؛ إنها أنوار الرجل الواحد (الرجل الغربي الأبيض) .لم يعد مصطلح الكونية إلا مجرد شعار لا ينفع الناس، ولذلك تحولت الهجرة إلى الإنسانية إلى هجرة إلى المشاركة في وليمة موائدها أطفال أبرياء لا حول لهم ولا قوة. لقد انتهت الأنوار إلى استعمار مباشر وغير مباشر للشعوب، وفُرضت على بعض الدول الفقيرة سياسة الأنوار التي تزيّنت في الظاهر بالشعارات الجميلة، ولكنها في واقع الأمر شعارات تظهر ما لا تبطن.

لنأخذ مثالاً على ذلك الشعار الذي اتخذه جول فيري - (Jules Ferry) الذي شغل منصب الوزارة في فرنسا (1832-1893) -: «الثورة الفرنسية: حرية، مساواة، أخوّة، لا تصلح لكل الشعوب، ويجب على الاستعمار ممارسة الوصاية على الشعوب البدائية». كما نلاحظ أن التنوير كان يخفي نواياه في بداية مراحل التأسيس، لكن بعد أن اختلط بالسياسة واستقوى بها، جاهر بخطاباته علناً وكأنه لا يبالي للأصوات الإنسانية المعارضة. وتحوّل الاستعمار الناعم إلى استعمار غليظ أتى على الأخضر واليابس في حياة الشعوب الضعيفة. وكانت إفريقيا مسرحاً كبيراً لعرض" مسرحية الأنوار الساخرة"، مسرحية دمّرت أوطاناً وخربتها ومحقت الملايين من البشر الأبرياء، نذكر على سبيل الذكر، الجزائر الشقيقة، بلد "المليون شهيد"، وغزة الآن والحصيلة الثقيلة للقتل والدمار والعنصرية. إن هذه المعطيات تؤكد أن تلك التسميات التي رُفعت كبديل للأنوار، مثل" ما بعد الحداثة "وغيرها، ليست إلا شعارات متنكّرة للتنوير، غايتها ضخّ دماء جديدة وابتداع طرق جديدة للاستعمار والقتل المادي والمعنوي من أجل أن يُحكم "الرجل الأبيض "قبضته ويواصل سيطرته على الشعوب والدول الضعيفة. لقد أوضح صامويل هنتنجتون (Huntington) أن: «مفهوم الحضارة العالمية يساعد على تبرير بسط السيطرة الثقافيّة الغربيّة على المجتمعات الأخرى وحاجة تلك المجتمعات إلى تقليد الممارسات والمؤسسات الغربية. العالمية هي إيديولوجيا لمواجهة الثقافات غير الغربيّة» (هنتنجتون، 1999، ص. 203).

إن السؤال، الذي يجلدنا بلا رحمة، هو: كيف تنتظر الشعوب المهمّشة في العالم من هذه الدول" الماكرة " هدايا مثل العدل والحرية والحق والمساواة؟. ثمة قول يقرّ بأن: «فاقد الشيء لا يعطيه»، وقياساً على ذلك، لا مطمع في التنوير، لأنه من أوله إلى آخره منحازاً لخطاب قائم على التمييز والحيف .وإلا، كيف لفكر يتّخذ من العقل والحرية شعاراً أن يغضّ بصره عن المرأة البيضاء وغير البيضاء؟.

فالتنوير لم يوصِ بالنساء خيراً، بل كان خطابه ذكورياً في الظاهر والباطن، خطاب ظاهره يسعى للقطع مع الجهل وحالة الظلمات، لكن باطنه يتورّط في جهل وظلمات جديدة عندما يواصل استعباد النساء والتشنيع بهن وكأنهن لا تشملهن صفة الإنسان .هذا التناقض يمكن نعته بـ" صدام الأضداد (*Choc des contraires*)" بعبارة الفيلسوف آلان.(Alain)

إننا لا نتحامل على عصر الأنوار، ولا نزعم شطبه بجرّة قلم، ولن نفعل ذلك حتى لا نسقط نحن بدورنا في عنصرية جديدة. بل هدفنا هو وضعه بين قوسين وتنزيله ضمن مساءلة فلسفية هادئة وغير متشنّجة، وذلك بفتح مغالق نصوصه وقراءتها قراءة تفكيكية تأويلية نقدية هدفها الكشف عن الثغور التنويرية وفحص" البثور "التي شوّهت الوجه المشرق للتنوير. ليس هدفنا إجراء عملية تجميلية للأجزاء الفاسدة منه، بل نسعى لوضع حدّ للتآكل الروحي للتنوير وإنقاذ ما تبقى منه من قطع إنسانية واسترداد معانيها المشوّهة. كل هذا من أجل تحرير قيم التنوير الكونية من" العالمية(Huntington, 1997, p. 18) "، التي قيّدت العقل الإنساني بلزوم ما لا يلزم وجعلته عقلاً كُلّيانياً متصلباً، ووقع استغلاله باسم شعارات التنوير التي كانت مثل" فقاعة.(*Bulle*) "

وحتى يثوب العقل إلى رشده ويتخلّص من وصاية العقل الغربي المعادي للحضارة الإنسانية (سورة طه، 18)، عليه أولاً وقبل كل شيء، أن يقيّم منجزات التنوير قبل تقويمه. من هنا، علينا نحن أن نمسك عصا التنوير من الوسط. فالخطاب العقلي الرصين ليس هو الذي يشتم التنوير ويشطبه أو يفسخه، بل هو الذي يثمّن إيجابيات الأنوار ويتجاوز سلبياته ويقطع دابرها، ومن ثمّ يتبين لنا الخيط الأبيض من الخيط الأسود في علاقة التنوير بالإنسان.

ما نلاحظه عند مقارعة نصوص التنوير الكثيفة بعضها ببعض، أن أول الخيوط السوداء التي تتدلّى من نسيج التنوير هو خيط المرأة التي لم تحظَ باستقبال كريم في سردية التنوير العميقة، حيث تكشف بعض النصوص عن استثنائها من صفة الإنسان كلياً. هذه الصدمة الموجعة تطرح جملة من الاستفهامات العاجلة، لعل أهمها هذا السؤال الجامع :هل غابت المرأة أم غُيّبت عن تاريخ الأنوار؟ هذا السؤال ليس من جنس الأسئلة التي تحتمل إجابة واحدة بل يحتمل أكثر من إجابة. إن كان ذلك كذلك، حقيق بنا أن نفلي نصوص الأنوار ونكشف عن وجهها الآخر عملاً بذلك المثل الوارف: «ما خُفيّ كان أعظم.«

فلنبدأ بنصوص كانط باعتباره من واضعي نواميس (مبادئ) التنوير.

الفصل الثاني: كانط والجندريّة الخجولة ونهاية أسطورة "العنقاء الجميلة"

قد لا يصدّق عاقل بأن فيلسوف الأنوار كانط(Kant) ، الذي ملأ الدنيا وشغل الناس، كانت آخر اهتماماته الخوض فلسفياً في مسألة النساء. هذا الفيلسوف الذي وصل به الحدّ إلى العزوف عن خوض تجربة الزواج خوفاً من أن يثنيه ذلك عن التفكير والنقد. ولطالما تهرّب كانط من الإجابة عن أسئلة لها علاقة بالنساء. وتساءل في كل مرة" :هل للمرأة عقل؟ ."هذه الأسئلة لا تشبه كانط الذي نعرف، على الأقل، لكنها في واقع الأمر تكشف عن صورة رمادية لهذا الفيلسوف "العملاق"، وهي الصورة التي وصفها جان لوك ماريون (Marian) بـ" الأنطولوجيا الرمادية (*L'ontologie grise*) "في سياق نقد ديكارت (Marian, 2000, ص. 14).

عندما نتابع بعض التفاصيل المتناثرة بين مؤلفات كانط الكثيفة، ندرك بأن الرجل حمّال مفارقات، ويتلاعب بالألفاظ. فعند حديثه عن عقل النساء يصفه بصفة" الجميل"، وهو وصف حسي، في حين يصف عقل الرجل بـ" العميق"، في إشارة واضحة لعقلانيته. وفي النص الرئيسي للأنوار، "جواب عن سؤال: ماهي الأنوار؟"، لا يتردّد كانط في وصف النساء بـ" الجنس الضعيف "دون أن يفصح عن ذلك (كانط، 1987، ص. 129).

في أغلب مؤلفاته ومحاضراته التي كان يُلقيها في جامعة "كونيكسبورغ" بألمانيا، يعتبر كانط المرأة "مواطناً سلبياً "ويستبعد أن تتحوّل إلى "مواطن إيجابي ."لقد شبّه كانط المرأة بـ" المخلوقات الوديعة " (كانط، 1987، ص. 129)، واعتبر أن سقوطها الأخلاقي يتشابه مع التداعي الثقافي. ولتجاوز هذه المساوي، يدعو كانط إلى التحلّي بالمسؤولية والتحرّر من الإرث اللاهوتي القديم، وكل ذلك في نظره يتطلب "الشجاعة "في استعمال العقل (عبد الرحمن، تاريخ غير محدد).

وقد لا نخطئ إذا اعتبرنا أن الفلسفة الكانطية مواصلة للتراث المسيحي الذي يعادي المرأة .ومن هنا، تكشف النصوص الكانطية عن سرّها المكنون الذي تخبيه بين ضلوع المتعالي، وهي ذكورية التنوير التي تقوم باستعباد المرأة باعتبارها غير صالحة للتفلسف والفلسفة. وبالتالي، يواصل التراث الجنسي وسياسة الاستعباد "الترنسندنتالية "سيطرتهما على عقول الفلاسفة والناس. انطلاقاً من هذه المعطيات الخطيرة، علينا الحذر، وألا ننظر للأنوار بعين واحدة، ولكن في الوقت نفسه، هذه الشكوك لا يجب أن تعمم وترمي كل منجزات التنوير وراء ظهرها، بل علينا تقليب نصوصه الأخرى علّنا نظفر بـ" قبس من الحكمة الجندرية "نشفي بها غلاً تاريخياً بدأ صبره ينفذ.

لذلك نسائل عن أحوال النساء عند واحد من أهم رهوط الأنوار، إنه الفرنسي جان جاك روسو (Rousseau).

الفصل الثالث: روسو وموءودة الأنوار أو أهازيج الحرية والمساواة الفارغة

يسلّم جان جاك روسو (Rousseau) بوجود فوارق طبيعية شاسعة بين المرأة والرجل، ويفسّر أصل التفاوت بين البشر إلى التفاوت الطبيعي. وقد قدّم صاحب "الاعترافات "تفاصيل هذا التفاوت وأقرّ بوجود فوارق بين الجنسين في الكتاب الخامس من مؤلفه العمدة "إميل "حيث يقول: «إنّ الشيء الوحيد الذي نعلمه بكلّ يقين هو أنّ كل ما هو مشترك بين المرأة والرجل يتصل بالنوع، وكلّ ما هو مختلف بينهما يتصلّ بالجنس... وأنه كل ما تعلق بالجنس توجد في كل مكان علاقات بين المرأة والرجل وتوجد اختلافات في كلّ مكان »(Rousseau, 1960, ص. 693).

هذا التفريق بين الجنسين يكشف في عمقه عن تواصل هيمنة الفكر اليوناني على عقلية فلاسفة الأنوار، لأننا نكتشف أنه هذا التفريق نفسه الذي صاغه أفلاطون في حديثه عن النساء. حيث عمد في مؤلفه "الجمهورية "إلى تقسيم الجنس البشري إلى مجموعتين: جنس الذكر وجنس الأنثى (أفلاطون، 1998، الكتاب 5)، وهو التقسيم الذي عُرف عند المهتمين بـ" نظرية شيوعية المرأة الأفلاطونية "واعتُبر رجعياً. وهو نفس الموقف الذي صاغه المعلم الأول أرسطو، حيث يعبر عن تفوّق الجنس الذكوري وتدنّي القدرات العقلية للنساء، خاصة القدرات الفلسفية التي تقتضي استعمال العقل (Aristote, 1995, ص. 480) .وتواصل هذا الجحود ونكران الاعتراف بالمساهمة الفلسفية للمرأة عبر تاريخ الفلسفة الطويل، لذلك كان تاريخها ذكورياً للنخاع، تاريخ يورّطها ويجعلها علم الرجال الأحرار.

وقد اعتبر روسو أن المرأة خُلقت لغاية إشباع غرائز الرجل، هذا الموقف تُبيّنه بشكل واضح سيرته الذاتية التي تحمل عنوان "الاعترافات "(روسو، 1998، ص. 237)، حيث نصطدم بالجحود ونكران الجميل والعمى. فارتباطه بـ" تيريز لوفاسور (*Thérèse Levasseau*) "تلك الريفية الساذجة كشف عن

سوء معاملتها، فقد وصفها" بالغبية "وأن نسبها وضيع، وأنها لا تصلح إلا للعناية بالمطبخ وشؤون المنزل.

لقد تنكّر روسو لقيم الاحترام والحرية والمساواة التي كافح من أجلها، وألقى مبادئ التنوير وراء ظهره، وكأن المرأة غير معنية بهذه الحركة العقلانية. ولذلك نصح بأن يتولّى الرجال مهمة التربية، وبذلك ساهم روسو في استبعاد المرأة واستعبادها، حيث يصرح بأن « Education des femmes doit être relative aux hommes » (Rousseau, 1960, ص. 703).

إن السؤال، هنا، كيف لفكر التنوير أن يطمس عينه بنفسه؟ بمعنى كيف لروسو أن يستبعد رفيقة دربه؟ وهو القائل في "العقد الاجتماعي» :"ولد الإنسان حراً وهو مكبّل بالأغلال في كل مكان» (روسو، 2012). لقد تنكّر روسو لـ "تيريز" التي عاشرته أكثر من عقدين من الزمن، ورفض أن يتزوجها، بل أكثر من ذلك، فإن صاحب "الاعترافات" لم يعترف حتى بأطفاله الخمسة الذين أنجبهم من "تيريز" خارج إطار الزواج، ووضعهم في ملاجئ الأطفال وكأنهم "القطاء". فكيف لفيلسوف النظريات التربوية الشاهقة أن يعامل رفيقته وأبناءه بمثل هذه القسوة؟

هذا الحيف وهذه المواقف العدائية تجاه المرأة أثارت ردود فعل قاسية ومتشنجة، حيث اتهمت مارغريت كانوفان (Margaret Canovan) روسو بأن موقفه متطرف ووصفته بـ "الموقف الباطرياركي الرجعي .(Canovan, 1987) "وتقول:

»إذا تصورنا إقامة معرض لأدوات تعذيب المرأة وقتلها، ففي ظني أن روسو سوف يحتل مكان الصدارة في مثل هذا المعرض المرعب، ذلك لأنه إذا كان معظم المفكرين السياسيين قد سلّموا بخضوع النساء، فإن بطرياركية روسو بصفة خاصة، كانت صارخة شديدة الوضوح، فضلاً عن أنها تتعارض تعارضًا شديدًا مع آرائه الثورية عن العدالة، والحرية والمساواة الخاصة بالوضع الصحيح للجنس البشري «... (Canovan, 1987).

والواضح أن روسو لا يخرج كثيراً عن النظرية الأفلاطونية (النشار، 1997، ص. 83)، حيث يوصي بضرورة أن تحظى المرأة بحظوة عائلتها خاصة أمها، وفي الوقت نفسه، عليها أن تعتقد عقيدة زوجها .(Rousseau, 1960)ومن هنا ندرك أن عقيدة المرأة لا تخضع لإرادتها الخاصة، بل هي إرادة خارجية، أو ما يسميه روسو "بإرادة الجميع (*Volonté du tous*) "التي هي "مجموع الإرادات الجزئية" (روسو، 2011، ص. 111).

كل هذه المعطيات جعلت مواطنته سيمون دي بوفوار (Simone de Beauvoir) تنتقده بشدة، وتكشف عن ازدواجية معايير خطاب روسو، فهي لم تنكر بأنه فيلسوف الحرية والفكر والعدالة، لكنها في الوقت نفسه تعتقد بأن روسو كان يعني بالإنسان الرجال دون النساء، وأن لهن وظيفة واحدة هي الأمومة (De Beauvoir, 1949, ص. 5).

وقد وبّخه فولتير (Voltaire) عندما تقدم روسو الشاب إليه بكتاب "خطاب في أصل التفاوت"، فقرأه وكتب في صفحاته الأولى جملة نقدية واحدة لروسو يقول فيها» :يشتهي المرء عندما ينتهي من كتابك أن يمشي على أربعة قوائم .«والمغزى من إدراج هذا التوبيخ هو احتواء فلسفة روسو لإرهاصات ما بعد الحداثة، أي نقد العقل للعقل. لكن ما يهمنا هو أن فلسفة روسو الموجودة وليست المنشودة، هذه الفلسفة كشفت عن ازدواجية المثقف وإمكانية تحوّله إلى مشروع مثقّف مزيّف أو" مثقف عضوي "(علي، 2004).

كل هذه التفاصيل وما أحيط بها من شبهات تجعلنا في حذر عند تعاملنا مع عقل الأنوار الذي وَسِعَ كلّ شيء. هذه التفاصيل تركت في تفكيرنا علامات استفهام كبرى وإحراجات ما زال المثقّف التنويري يتهرّب منها إلى يوم الناس هذا. علامات بقيت وصمة عار على جبين "الرجل الأبيض"، الذي يزعم أنه رجل الحرية والمساواة والتنوير. هذه الدونية والحقد على النساء توارثه الغرب جيلاً بعد جيل، وكان أشد ضراوة وشراسة في العصور اللاحقة لعصر الأنوار. فهذا نيتشه يصرح - بكل وقاحة - في "هكذا تكلّم زرادشت» :"أن المرأة لا تزال في أفضل الأحوال حيواناً كالقطط والكلاب والأبقار، وأنها تتآمر مع كل أشكال الانحلال ضدّ الرجال» (نيتشه، 2014، باب الصديق).

لقد كان نيتشه يكيل التصغير والشتائم للمرأة. وليس غايتنا من إقحام نيتشه في هذا الجدل الفكري الإساءة إلى سردية الأنوار، بل غايتنا الكشف عن سياسة الحقيقة التي انتهجها نيتشه في التعامل مع قضايا المعرفة، والتي كان فيها غريماً لكانط وينصب له العداء. لكن هذا العداء يذوب فجأة ودفعة واحدة عندما تطرّق نيتشه لموضوع النساء، وتحوّل إلى كانطي للنخاع وتبنى مواقفه الجندرية ودعمها. لقد قال نيتشه في موضوعات كره النساء" نعم "وهو الذي يتخذ من" اللاّ "شعاره المفضل في ثورته على عقل الحداثة: «إذن المشكل السيكولوجي الذي تطرحه شخصية زرادشت هو معرفة كيف يقول لا هذا الذي اعتاد أن يقول نعم «(Nietzsche, 1974,ص. 127.)

لكن هابرماس اتهم نيتشه" بالمزايدة "(الحوني، 2001، ص. 49-64) وأن نقده لم يكن لغاية في نفسه، وهي تعقيد النقد بحجة إعادة بناء المعرفة. لكن هذا النقد أنتج معرفة مشوّهة لا تشبه الحضارة القلقة. وكأن العقل الغربي (التنويري) الذي اختلط بالسياسة يرتد مسروراً إلى حالة الطبيعة التي كان عليها أول مرة، ولذلك وصفه فلاسفة ما بعد الحداثة (هابرماس، أدورنو، هوركايمر) "بالعقل الهاذي (Horkheimer " Adorno, 1974,& ص. 24) أو العقل الذي أصابه نوع من الإعياء الميتافيزيقي .لقد أصاب عقل التنوير الخَرَف (من الخرافة)، «يمنع كل خيال نظري من النشاط» (الخوني، 2001، ص. 57)، وافتضح أمره بأنه أبعد ما يكون عن العقل.

لقد انصهر العقل التنويري في متاهات السياسة (الدينية، السياسية) التي قلّصت من بريقه وأصبح في الأفول والخسوف .لقد عنون هوركايمر (Horkheimer) مؤلفه بـ" خسوف العقل (*Eclipse de raison*) " لوصف حالة اللاعقل التي تعانيها الحضارة الإنسانية ما بعد الحداثة والتشهير بالفضائح الباطنية لعقل الأنوار (Horkheimer, 1974,ص. 183). هذا العقل الذي انتهى إلى" جنون جمعي "أو ما يسميه هوركايمر "بالبرانويا."

خاتمة: ابن رشد وتهافت الأنوار الغربية

ثمة قول ينصح" بعدم رمي الرضيع مع ماء غسله (Adorno, "تاريخ غير محدد .(ولذلك لسنا مطالبين بالإعراض عن التنوير، بل كل ما علينا فعله تقويم اعوجاجه وتمتين أرضية عقل التنوير الهشّة، وعدم المجازفة بزجه في متاهات قد يخرج منها العقل الناجي محطماً ومخيباً للآمال، غير قادر حتى على تجاوز عتبة "تدبير المتوحّد "(ابن باجة، 1994، ص. 15).

لقد تبيّن لنا من خلال قراءة نصوص التنوير الكثيفة والحفر في أعماقها، أن الرهان الحقيقي على التنوير لن يكون حقيقياً إلا من خلال البحث عن نصوص فلسفية لا تفرق بين الذكر والأنثى، بعيداً عن أشكال التمييز" المقرف ."لقد صار التنوير مُنزلقاً (سرباً/منحدراً) تلقي فيه اللغة آخر استعاراتها المؤنثة، من أجل البحث عن آمال للإنسان وتضع حداً لتجاوزات حفنة من الفلاسفة وصلفهم وغرورهم وهذيانهم الطافح الذي مثّل ضرباً من الختل.

ووجدنا أن نصوص ابن رشد ممتلئة بالوعي الوديع ورخاء النفس. إنها نموذج التنوير الحقيقي السابق لأوانه .فقد اكتشف ابن رشد منذ القرن الثاني عشر ميلادي (12م) الطريق الوسط التي تحاول إعادة النضارة للمرأة وتجاوز كل الوعكات الاجتماعية القائمة على التمييز. إن العودة إلى ابن رشد تمثّل، في واقع الأمر، عودة إلى ذاتنا العميقة التي نحتاجها، لتصفية حساباتنا مع التنوير وعقله ورفض قيمه السائدة التي تسلّلت "خلسة "إلى مجتمعاتنا. فالعودة لابن رشد ليست من أجل التفرّج على تراث مضى وولّى، بل عودة تأويلية لقراءة التراكمات التاريخية للتصدع الفلسفي النسوي ومحاولة الانتصار النصي للمرأة، واستئناف التنوير الثاني، الذي هو في الأصل الأول، وربما الأخير، بواسطة التجديد.

لقد مثّلت النصوص الرشدية إرهاصاً لصورة المرأة التي شملها التنوير الحقيقي وغير المشوّه .فقد خرج ابن رشد عن العباءة الأرسطية في مسألة المرأة وأشاد بها، ولم يعد التفكير حكراً على الرجال، بل للنساء مثل حظّ الرجال، وتمزّق سربال التنوير الضاغط.

لقد أقرّ ابن رشد بالمساواة والندية التامة بين الجنسين، وهذا تقريباً أول موقف فلسفي يدافع عن المرأة علناً دون وَجَس وحيطة، ويثبت بالفعل أن فلسفة ابن رشد فلسفة سابقة للزمان، فلسفة مستقبل .وكأن العودة للرشدية، هنا، تكون من المستقبل وليس من الماضي.

لقد انتصر ابن رشد للعقل الإنساني برمّته ولم يُقفّص المرأة عقلياً، فقد أقرّ بقدرتها على فعل جميع ما يفعله الرجال من فلسفة وحرب إلى غير ذلك. فلا فرق عند ابن رشد في الغايات الإنسانية، فالفرق البسيط يكمن في ما يسمّيه هو" الكدّ الجسماني "الذي يقرّ بتفوّق الرجل لصلابة بنيته الجسمية الغليظة. في المقابل، يعتبر ابن رشد المرأة" حذّاقة"، أي تحذق أعمالاً لا يستطيع الرجل حذقها كالفنّ. لذلك يجب أن تنال المرأة نفس حظوظ الرجل في التربية وأن تتقلّد نفس المناصب دون استثناء بما في ذلك المناصب العليا (كالرئاسة) وقيادة الحرب، حيث يقرّ بأن: «مشاركتهن في الحرب وما شابه ذلك، فإن هذا واضح عند أهل البراري والثغور» (ابن رشد، 1998، ص. 124).

ويعقد أبو الوليد فصولاً كاملة من أجل وضع قواعد "التكامل" والتعاون بين الذكر والأنثى وتكسير قاعدة "التفاضل ."ويقدم مثالاً على ذلك بقوله: «صناعة الألحان التي تبلغ كمالها إذا أنشأها الرجال وأدّتها النساء» (ابن رشد، 1998، ص. 124)، ويستنتج ابن رشد قائلاً: «لذلك كانت بعض النساء :حكيمات وحاكمات «(ابن رشد، 1998، ص. 125).

ولذلك نقول كم نحن في حاجة لمثل هذه الكثافة الرشدية في مدننا وأوطاننا "الرمادية"، وعلينا أن نقتدي بابن رشد لقطع الحبل السُرّي للتنوير الغربي، ونستأنف التنوير المحلّي .وأن نقرأ ابن رشد من جديد بوصفنا أحفاده، وبوصفه عصا الطريق التي نتوكأ عليها لنهشّ بها عن آمالنا المستقبلية التي نهشها "الرجل الأبيض ."هذه القراءة تمثّل التنوير الجديد – القديم والحقيقي الذي يدفع العقل ليثور على عقله.

نعتقد أن قراءة مثل هذه لن تتحقق إلا بسحب البساط من تحت الفلسفات التي صوّرت لنا ابن رشد والرشدية (رينان، 1957) ضمن سياق" الشارح الأكبر "أو" المقلّد لأرسطو ."إن ابن رشد فيلسوف بكل ما للفلسفة من معاني التفكير والحرية والإبداع وليس مجرد شادياً (مقلد)، وقد كتب فلسفة تصوّر مصير الإنسان (شاهين، 1997) الذي خلق من ذكر وأنثى »لتعارفوا «(سورة الحجرات، 13).

فقد لا نبالغ إذا قلنا بأن ابن رشد يفسّر ما قبله وما بعده. لذلك لا بدّ من رهان فلسفي يراهن على ابن رشد راهناً، ليثوب العقل الإنساني إلى رشده. ويجعل المرأة كائناً جديراً بالحرية والمساواة، امرأة رافلة.

ويبدو أن المرأة تحتاج إلى ثورة جديدة لاسترداد كينونتها التي شوهتها ذكورية الأنوار المفرطة .ونحن اليوم لا نملك إلا أن نقول أن درس التنوير الحقيقي اليوم، هو درس الهُوية .وبوصفنا أحفاد ابن رشد،

علينا استبدال دروس الأنوار الغربية و" معلباتها "الفاسدة بمنتوجاتنا الفلسفية المحلية، أي إعادة ابن رشد إلى معركة تحرير المرأة، تحرير الوطن... لتصبح أوطاننا أوطان التنوير الحقيقي ونساءنا نساء ونصف.

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر والمراجع العربية

1. ابن باجة .(1994). تدبير المتوحّد .تونس: سراس للنشر.
2. ابن رشد .(1998). تلخيص السياسة لأفلاطون (ح. م. العبيدي و ف. ك. الذهبي، ترجمة). بيروت: دار الطباعة.
3. أفلاطون .(1994). الجمهورية (الكتاب الخامس والثامن) (ش. د. تمراز، ترجمة). بيروت: الأهلية للنشر والتوزيع.
4. الخوني، محسن .(2001). خصومة التنوير أو هابرماس ونيتشه .مجلة الدراسات الفلسفية التونسية، (28-29)، 49-64.
5. رينان، آرنست .(1957). ابن رشد والرشدية .لبنان: دار إحياء الكتب العربية.
6. روسو، جان جاك) .د.ت .(إميل، أو تربية الطفل من المهد إلى الرشد (ن. لوقا، ترجمة). القاهرة: الشركة العربية للطباعة والنشر.
7. روسو، جان جاك .(1998). الاعترافات (ح. مراد، ترجمة). دمشق: دار البشير للطباعة والنشر والتوزيع.
8. روسو، جان جاك .(2012). في العقد الاجتماعي (ع. زعيتر، ترجمة). القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة.
9. شريعتي، علي .(2005). مسؤولية المثقف .بيروت: دار الأمير للثقافة والعلوم.
10. شاهين، يوسف .(مخرج) .(1997). المصير [فيلم]. القاهرة: مدينة الإعلام.
11. عبد الحميد، عايدة عبد الحميد) .د.ت .(نظرية المعرفة عند كانط .مصر: منشورات كلية البنات.
12. فوكوياما، فرانسيس .(1993). الإنسان الأخير ونهاية التاريخ (م. الصفدي، مراجعة). بيروت: مركز الإنماء القومي.
13. كانط، إيمانويل .(1987). جواب عن سؤال: ماهي الأنوار؟ .مجلة الفكر العربي، .(48)
14. المؤتمر الدولي .(2000). الفلسفة والسلم (la philosophie et la paie)أعمال الملتقى الدولي). جامعة بولونيا، إيطاليا: منشورات الجامعة الإيطالية.
15. النشار، مصطفى .(1997). مكانة المرأة في محاورتي الجمهورية والقوانين .القاهرة: دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع.
16. نيتشه، فريدريك .(2014). هكذا تكلم زرادشت، كتاب للكل ولأحد (ف. فارس، ترجمة). القاهرة: مؤسسة هنداوي للنشر.
17. هنتنجتون، صامويل .(1999). صدام الحضارات (ط. الشايب، ترجمة). القاهرة: شركة سطور.
18. القرآن الكريم(.رواية قالون عن نافع المدني.)

ثانياً: المصادر والمراجع الأجنبية

1. Adorno, T. W. (n.d.). Minima moralia, la vie mutilée.
2. Anché, E. (1996). Totalitarisme. In Ph. Raymand & S. Rials (Eds.), Dictionnaire de philosophie politique. Paris: P. v. F.
3. Aristote. (1995). La politique. Paris: J. Vrin.
4. Canovan, M. (1987). Rousseau’s concepts of citizenships. In E. Kennedy & S. Mendus (Eds.), Women in western Political philosophy. Great Britain: Wheatsheaf Books.
5. De Beauvoir, S. (1976). Le deuxième Sexe. Paris: Editions Gallimard.

6. Habermas, J. (1985). Le rôle de la philosophie au sein du marxisme après Marx. Paris: Foyard.
7. Horkheimer, M. (1974). Eclipse de raison. Paris: Payot.
8. Horkheimer, M. (1974). Théorie traditionnelle et Théorie critique. Paris: Gallimard.
9. Huntington, S. (1997). Le choc des civilisations. Paris: Editions Odile Jacob.
10. Kant, E. (1991). Réponse à la question: Qu'est-ce que les lumières? (J. F. Poust & F. Paust, trad.). GF, Flamarion.
11. Marion, J.-L. (2000). Sur L'ontologie grise de Descartes (4e éd. revue et augmentée). Paris: Librairie philosophique J. Vrin.